تأسيس جمعيّة قدماء الصادقيّة
وبرنامج عملها

علي
باش حانبه

أنشئت المدرسة الصّادقيّة بمقتضى أمر عليّ صادر في 13 جانفي 1875، بناء على مبادرة من قبل خير الدين ، ذلك أنّ هذا الوزير المستنير والمصلح الذي أشرف على شؤوننا العموميّة مدّة قصيرة، ويا للأسف، قد أدرك بفضل إقامته الطويلة الأمد بفرنسا، أنّ من الواجب "أن نعلّم الشبّان التونسيّين اللّغات الأجنبية والعلوم العقليّة، من كلّ ما تحتاج إليه الأمة الإسلاميّة في إقامة مصالحها، ولا يرفضه شرعها"، (من ديباجة الأمر المشار إليه أعلاه).

وقد مثّل هذا الحدث ثورة في الميدان الفكري التونسي، إذ أقحمت في برامج التعليم مواد جديدة لم تكن معروفة في جامعتنا، وكان من اللازم إبراز ما كان يتميّز به خير الدين من حزم، وما كان يتمتّع به كاتبه الخاصّ محمد بيرم الخامس من مهارة للفوز بالنجاح في هذه المهمة.

وقد انقضت الآن ثلاثون سنة منذ ذلك التاريخ، تغيّر أثناءها الوضع السياسي في تونس، وأدخلت على برامج المدرسة الصّادقيّة ونظامها تحويرات حتّمتها الظروف. ويحقّ لنا اليوم أن نقول دون أن نخشى أيّ تكذيب – بعد إلقاء نظرة على الإنجازات التي تحقّقت – إنّ هذا المعهد قد كان يمثّل، من حسن الحظ، همزة الوصل بين فرنسا الحتمية وتونس المحميّة، فكان

المنبت الذي انتدبت منه حكومة الحماية موظّفيها الأوائل لإعـادة تنظيـم إدارة البلاد. وكان أبناء الصّادقيّة المتضلعون في اللغة الفرنسيّة هم الذين يسّروا – بل جعلوا من الممكن تحقيق الوفاق بيـن العنصـرين (التونسـي والفرنسـي)، وقاموا ومازالوا يقومون بهذا الدور منذ عهد بعيد.

ثمّ تتالت في هذا المعهـد أجيـال مـن التلامـذة الـذين خلقـوا بيئة خاصّـة ذات تقاليد جديدة. ذلك أن الفصل الثالث والثلاثين من الأمر المؤرخ في 13 جانفي 75 ينصّ على ما يلي:

"تجب المساواة بين المتعلّمين في الحقوق، وتمثّل ميـزة التلميـذ الوحيـد فـي نجابته أو حسن سيرته".

وستسفر عن هذه القاعدة نتائج على غاية من الأهميّـة. ذلـك أنّـه مـن خلال جمع أطفال ينتمون إلى كافّة طبقات المجتمع التونسي، على نفـس المقاعـد وفي نفس قاعة الأكل وعرفة النوم، ستغرس مبادئ التربية الديمقراطية فـي أذهان الشباب الذين سيعترض على ما تتّسم بـه الفئات الاجتماعيّـة مـن ميـز كان وما زال موجودا عندنا لسوء الحظّ. وهكذا فإنّ الأمير والـبرجوازي وابـن الشعب سيتعارفون ويتآخون. وبفضل المبيت سيجتمع القـروي والريفـي بـابن العاصمة الذي كان يحتقرهما قبل ذلك، وسيتعلّم كيف يعرفهما ويحبّهما.

ذلك هو نمط العيش المشترك الذي كنّا نجهله إلى حـدّ الآن. وهـو الـذي مـن شـأنه أن يبعـث فـي نفـوس النشء مشـاعر الصـداقة والاتحـاد والتضـامن. وسيؤلف قـدماء تلامـذة المدرسـة الصّـادقيّة أسـرة وافـرة العـدد، سـيحتفظ أفرادها، رغم تشتّتهم في أرجاء البلاد، بذكرى حيّة عن المركز الذي قضوا فيه

سنوات مراهقتهم الجادّة. وإنّ ما نقترحه عليكم – أيّها السّادة – هو تعهّد تلك المشاعر القائمة على أساس الصداقة والاتحاد والتضامن، وتنميتها من خلال تأسيس جمعيّة قدماء تلامذة المدرسة الصّادقيّة.

تركيب الجمعيّة وهدفها

ستكون هذه الجمعيّة مفتوحة على مصرعيها في وجه كل الذين زاولوا دراستهم في هذا المعهد، كليّا أو جزئيّا، والبالغ عددهم اليوم زهاء الستمائة نفر، معظمهم يشغلون أهمّ الوظائف الإداريّة، والبعض منهم تمكّنوا، بفضل مواصلة دراستهم في عدد من الاختصاصات، من تقلّد مناصب محترمة في سلك المهن الحرّة.

ويجوز لنا أن نقول إنّ قدماء تلامذة معهدنا يمثّلون نخبة الشبيبة المثقّفة. لذلك أقترح عليكم أن نرسم لجمعيتنا هدفا ساميّا جديرا بما يحقّ لنا أن ننتظره من جهد ونشاط من قبل مثل هذه النخبة. فستسعى جمعيّتنا، على غرار أيّة جمعيّة من هذا القبيل، إلى تعهّد مشاعر الصداقة والاتحاد والتضامن، وتنميتها لدى أعضائها. وسنبلغ هذا الهدف، بفضل توفير محلّ للاجتماع يمكّن الشبّان من الاتصال بإخوانهم القدامى، ويسمح لزملائهم في داخل البلاد بالاجتماع بثلّة من الأصدقاء، أثناء قدومهم إلى العاصمة.

وسيتمثل التضامن بين أعضاء الجمعيّة في التعاون المتبادل، والدعم الأدبي من قبل كلّ عضو، والإسعاف المادي الناجع في الأوقات العصيبة، بواسطة موارد الجمعيّة.

وستسمح المكتبة والمحاضرات برفع مستوى إخواننا الثقافي أكثر فأكثر، وغرس حبّ العمل في نفوسهم. فمن منّا لم يشاهد بكلّ أسف توقّف تطوّر معظم أقراننا في المجال الفكري، إثر خروجهم من المعهد؟ ذلك أنّنا حينما نكون في حالة عزلة، نميل بسهولة إلى الانضمام إلى وسطنا السابق، وشتّان بينه وبين وسط يتّقد نشاطا. وعوض أن نسعى إلى إثراء زادنا المعرفي الهزيل، ونميل بسهولة إلى الانضمام إلى وسطنا السابق، وشتّان بينه وبين وسط يتّقد نشاطا. وعوض أن نسعى إلى إثراء زادنا المعرفي الهزيل، وتنمية ثقافتنا العامّة، نصل في ظرف بضع سنوات – لا أقول إلى نسيان ما تعلّمنا – بل إلى فقدان المبادئ الأولى لتلك الروح الجديدة التي بدأت تتكوّن على مقاعد المدرسة الصّادقيّة، بمفعول تعلّم المواد العلميّة والأفكار الحديثة. وإنّ هذه الظاهرة لتمثّل خسارة جسيمة! فينبغي أن تكون لنا الشجاعة الكافية لنؤكّد أن عقليّة جماهيرنا الشعبيّة موسومة بطابع فترة الجهل الطويلة المدى التي عقبت عصر الانحطاط.

وإن أردنا اليوم أن نعيش وسط أجناس مختلفة قدمت إلى بلادنا، فإنّ تلك العقليّة هي التي يجب علينا مقاومتها وتغييرها. ولبلوغ هذه الغاية ينبغي أن نسعى إلى تعهّد تلك الروح الجديدة التي نشأت في الصادقيّة وتنميتها في أذهان زملائنا، ثمّ غرسها في نفوس الجماهير . ذلك هو هدف الجمعيّة المزدوج! وسنسعى إلى بلوغه، بالنسبة إلى رفقائنا، بواسطة الاتّصال المباشر والعمل المشترك، وبالنسبة إلى الجماهير، بتنظيم ما يسمّى "بالتعليم ما بعد المدرسي" ولا يفوتكم ما يقدّمه هذا النوع من التعليم من جليل الخدمات في فرنسا وفي جميع البلدان المتقدّمة. ومن المعلوم أيضا أنّ هذا التعليم منبثق

على وجه العموم من المبادرة الخاصّة. فالدولة تشجّعه وتمدّ إليه يد المساعدة، لكنّها لا تنظّمه. وإن أردنا أن ينتفع به مواطنونا، وان نستخدم هذه الأداة الثمينة للإسراع بتطويرها نحو الرقيّ والأفكار الحديثة، فما علينا إلاّ تحريك السواكن، والتخلّي عن عاداتنا المعهودة المتمثلة في التعويل على الدولة بالنسبة إلى كلّ ما ينقصنا، وإدراك أهميّة المبادرة الخاصّة في آخر الأمر. وبناء على ذلك فإني أقترح عليكم أن نجعل من هذا العمل المتعلّق "بالتعليم ما بعد المدرسي" هدفا ساميّا لجمعيّتنا التي نأمل أن يرجع لها الفضل في أن تكون يوما ما أوّل مؤسسة تونسيّة قامت بالعمل الرامي إلى رفع مستوى الإنسان التونسي معنويّا وفكريّا.

وحيث أنّ هذا العمل هو من الأعمال ذات المصلحة العامّة، فإني أقترح عليكم أن نقبل في جمعيّتنا – بوصفهم أعضاء عاملين – كلّ من يرغبون في مساعدتنا على القيام به، مهما كانت جنسيّتهم.

والآن نرى من الفائدة، لتوضيح الأفكار، أن نرسم لكم الخطوط الرئيسيّة لهذا المشروع. ولسنا ندّعي أننا سنقدّم إليكم دراسة ضافية ومفصّلة حول تنظيمه. فهذا سيكون من مهامّ الهيئة التي ستنتخبونها. وإنّما سنقتصر على تقديم البيانات التالية:

1) – إنشاء مكتبة تحتوي على كتب ومجلّات وجرائد عربيّة وفرنسيّة في مقرّ الجمعيّة، وتكون مفتوحة لا في وجه أعضاء الجمعيّة فحسب، إنّما في وجه كلّ من يريدون التردّد عليها، وتتوفّر فيهم الشروط التي سيضبطها نظامنا الداخلي. ويمكن لزملائنا المقيمين خارج العاصمة أن يطلبوا موافاتهم بالكتب التي يودّون مطالعتها.

2) - تنظيم محاضرات تبحث في كافة المواضيع، ما عدا المواضيع السياسيّة والدينيّة، يلقيها أعضاء الجمعيّة وبعض الشخصيّات الأجنبيّة، بصورة دوريّة، وعلى الأقل مرّة في كلّ شهر. وستكون هذه المحاضرات مخصّصة لأعضاء الجمعيّة وضيوفهم.

3) - إلقاء دروس عموميّة في المساء ذات مستوى رفيع بما فيه الكفاية، تتعلّق بالتاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع والاقتصاد السياسي والفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعيّة – وستلقى هذه الدروس بانتظام طوال السنة بالغة الفرنسيّة أو العربيّة، حسب الحاجة.

4) - تنظيم دروس باللّغة العربيّة، حسب الطرق الحديثة، في النحو والإنشاء وشرح النصوص والأدب بوجه هامّ.

ويمكن دعوة بعض أساتذتنا من مدرّسي الجامع العظم لإلقاء هذه الدروس، وإمدادهم بالبرامج والمناهج المبسطة المعمول بها في مصر.

وسنكون سعداء بحضور الفرنسيّين في هذه الدروس، وسنبذل قصارى جهدنا لنسهل عليهم متابعتها. ففي هذه البلاد التي يعيش فيها جنبا إلى جنب فرنسيّون وتونسيّون، من الضروري أن يتواصلوا إلى التفاهم فيما بينهم. وبذلك نستطيع أن نقدّر بعضها بعضا، وعندئذ ستزول كثير من الأحكام المسبقة ويحلّ محلها التقدير المتبادل. وستفضي بنا إلى هذه الغاية معرفة اللغة والمعاشرة. ولئن توفّرت لدينا في الوقت الحاضر تسهيلات كثيرة لتعلّم اللغة الفرنسيّة، الراغبين في تعلّم لغتنا. ذلك أنّ جامعتنا، باعتبارها مؤسّسة

دينيّة أو على الأقل موجودة في محلّ ذي صبغة دينيّة، لا يستطيع الفرنسيّون دخولها، ولا دخول المكتبة العربية الوحيدة الموجودة في نفس الجامع.

وليس في متناولهم سوى الدروس العموميّة التي تنظّمها إدارة العلوم والمعارف، إلاّ أن تلك الدروس، بالرغم ممّا تقدّمه من خدمات جليلة وحقيقّة، غير كافية لتمكينهم من إجادة اللغة العربيّة. فيجب عليهم بعد مزاولة الدروس والمحاضرات الأخرى الملقاة باللغة العربية، الاتصال بالأهالي، وباختصار الاندماج في وسطنا، وبفضل توفير جميع الوسائل، تكون جمعيتنا قد خدمت سياسة المشاركة التي تعتبر السياسة الناجعة الوحيدة في هذه البلاد.

تلك هي الخطوط العامّة للجزء الأوّل من برنامجنا الموجّه نحو الأشخاص الذين اكتسبوا نصيبا من التكوين الثقافي ويريدون تنمية معارفهم.

أمّا الجزء الثاني فهو يتعلّق بتبسيط المعارف وبالتربية الشعبيّة وهو موجّه إلى الشعب وإلى الجماهير غير المتعلّمة، غير أنّه لا يقل أهميّة عن الجزء الأوّل، وربّما يستدعي كثيرا من الجهد، وعلى كلّ حال المثابرة والتفاني، دون كلل ولا ملل، وإنّنا نرجو أن يوجد من بيننا إخوان لن يبخلوا لا بوقتهم ولا بنشاطهم لإنجاز هذا العمل الذي سيتمثل في تنظيم مسامرات عموميّة في الأحياء الأكثر شعبيّة، مثل باب سويقة والحلفاوين وباب جديد...

ولهذا الغرض سنلتجئ إلى الطريقة العلميّة التي يستعملها الدّعاة، فنفتح في تلك الأحياء دكاكين نؤثثها تأثيثا بسيطا بمقاعد وسبّورة سوداء وخرائط حائطيّة وأضواء كاشفة، نتحوّل إليها كلّ مساء لنحادث من سيأتون إلينا، في مسائل مفيدة بالنسبة إليهم. ومن المواضيع التي يمكن أن نتطرق إليها نذكر

على سبيل المثال: أضرار تعاطي الكحول، ومحاسن حفظ الصحّة، والأمراض المعدية، والعواطف العائليّة، والتسامح واحترام الغير وحبّ العمل إلخ...

كما سنعالج مواضيع التبسيط العلمي المتعلّقة ببعض الموادّ مثل الفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعيّة وعلم الفلك والزراعة... ولن تتّسم تلك المسامرات بأيّة صبغة معقّدة. ذلك أن الذين سيكلّفون بالقيام بها سيحرصون على جعلها في متناول الأميّيين الذين سيستمعون إليهم.

ومن ناحية أخرى نستطيع أن نستعمل المساجد الموجودة في الأحياء لتمكين بعض المدرّسين من بين أصحاب شهادة التطويع بالجامع الأعظم، أو خرّيجي مدرسة ترشيح معلمي اللغة العربيّة (المدرسة التأديبيّة)، من إلقاء دروس مسائيّة في الخطّ والحساب والقراءة إلخ... لفائدة صغار التجّار والحرفيين.

هذا ملخّص أفكارنا حول العمل الذي نقترح عليكم القيام به في ميدان "التعليم ما بعد المدرسي" وهو عمل سيكون لا محالة مثمرا من حيث النتائج. وفي اليوم الذي سنتوصّل فيه إلى غرس حبّ العمل في نفوس مواطنينا وتمكينهم من الوسائل الكفيلة بتلبية تلك الرغبة، وإلى تربية الجماهير الشعبيّة، عن طريق نشر الأفكار الحديثة وتبسيط العلوم، نكون قد نجحنا في دفع أنشطتنا إلى الأمام، والإسراع بتطوّرها في اتجاه وضع أكثر ملائمة لحاجات العصر، من شأنه أن يسمح لنا – مع توفير شيء من حظوظ النجاح – بخصوص غمار الكفاح بثبات من أجل الحياة، وهو كفاح يتّسم بصيغة مريرة أكثر فأكثر في هذه البلاد

نقله من اللّغة

الفرنسيّة

حمّادي السّاحلي